الأستاذة : بوقاسة فطيمة جامعة جيجل

الفعل النقدي العربي بين الماهية و التماهي

" لقد انتهى عصر النمادج و الأوثانالجاهزة الصنع و على العالم الثالث أن يختار نماذجه الخاصة "

ـموريس غورنيهـ

لا ريب أن المصطلح اللساني الحديث إستضافة العلوم لم يأت من فراغ بل كان صورة صادقة لتلك الوشائج العميقة التي كانت و لازلت تربط العلوم المختلفة بغضها ببعض خدمة للمعرفة الإنسانية و سعيا إلى الكلية و الشمول .

غير أنه و إلى جانب ما في لفظ الاستضافة من حميمية و ألفة تذكرنا بمعاني الزيارة و الحلول و غيرها , جانب آخر يغفل عنه كثير ممن تناول هذا الموضوع , و هو الأخذ بِطَرَفٍ أو بِقَدَرٍ ذلك أن معنى الضيافة في عُرف العربي ـ طبعا ـ يجانب معنى المكوث و الحلول و القعود , إنه يعني الحلول بأجل لا يتعدى ـ عادة ـ الثلاث ليال , ليصبح ما فوق هذه الثلاث صدقة !!

لا غرو إذن في أن تتلاقح العلوم و تتداخل , و النقد الذي هو موضوعنا لا يشذ عن هذه القاعدة كما يقول يوسف سامي اليوسف : " فالنقد بمعناه المفصول عن الفلسفة و علم النفس و العلوم الأخرى إن هو إلا جزئية لا تتمتع بمقام الكلية

و الشمول "(1)

كان لابد إذن للنقد العربي المصاب عند العرب بفقر الدم ـ إن أراد أن تعلو نتائجه الحمرة ـ أن يفتح نوافذه لرياح العلوم الأخرى تاريخا وفلسفة و علم نفس و منطق و إحصاء و إثنولوجيا .....و غيرها

غير أن الإشكاليات التي طرحت نفسها بقوة, هي:

- كيف استفاد النقد من هذه العلوم ؟ و ما مدى هذه الاستفادة ؟

- هل كانت هذه العلوم بردا و سلاما على نتائج النقد أم أنها احتلت النقد احتلالا فاضحا إمحت معه هويته ؟
- هل فتح النقد نوافذه لرياح العلوم الأخرى حقا, أم شرع أبوابه فاقتلعته ؟

بمعنى آخر : هل طبق قانون الاستضافة العربي فأخذ بقدر أم ذهب ليضيف فمكث حتى أصبح طالب صدقة ؟

بمعنى أوسع : هل أحسن العرب ـ النقل ـ عن الغرب أم أنهم أضاعوا الفعل و النقل معا فكانوا على رأي زهير بن أبي سلمى :

ما أرانا نقول إلا معارا ؟

1ـ النقل عن الآخر أو فعل المحاكاة:

تواضع اللغويون العرب على مفهوم واحد للفظ ـ النقد ـ و هو" تمييز رديء الشيء من جيده " (2) و ألقى مفهوم اللفظ بظلاله على اصطلاحه قرونا عدة يُعمل فيها الناقد العربي بصره و بصيرته لفرز ما يلاقيه من مادة أدبية حتى أضحى فعل النقد تَصَيدًا للمثالب و الأخطاء و تتبعا لعورات الأدباء و المبدعين.

و جاء التطور الغربي في شتى مجالات العلوم ليبهر الناقد العربي بكل هذا الزخم من المعرفة و ليأخذ في الغالب بقشور هذه العلو م لا بلبابها و يلو ك ما رماه الغرب مغتبطا به و كأنه صاحبه و مبدعه !!

إن أبسط قانون للمحاكاة هو أن يكون الناقل مدركا لما ينقل, عالما به , عارفا بخباياه و تفاصيله , فحسب منذور : " أساس الأخذ عن الغير و الإثراء به هو الفهم العميق , و كل فهم صحيح تملك للمفهوم " (3). و هو ما لا يكاد يتوافر في عملية محاكاتنا للآخر .

2 ـ الدونية في المحاكاة :

عادة ما يتعامل العربي في واقع حياته , قبل ثقافته , مع الحضارة الغربية من منطلق دوني , تحتي و في الأدب كان تفاعل الناقد العربي مع جديد مناهج البحث في الغرب تعاملا آليا كما يؤكد سيد

البحراوي " تعاملا نقليا , و ليس تعاملا علميا أصيلا و هو نموذج لتعاملنا مع الحضارة الغربية في واقع حياتنا "(4).

و إلا بما نفسرالتقاف الناقد العربي لمنهج يدعى الانطباعية ؟ على الرغم من يقيننا بأن أي عمل نقدي لابد أن يتوافر فيه بدءا الانطباع و التذوق سواء أكان إيجابا أم سلبا , إذ هو منطلق الفعل النقدي أصلا , فلن تنقد نصا لم تقرأه و لم تتفاعل معه استحسانا أو استهجانا , و باد إلى العيان إذن أن هذه النظرية _ و من مبتداها_ خاطئة أو قاصرة لأن مهمة النقد كما يؤكد نبيل راغب هي " تحليل العمل الأدبي إلى عناصره الأولى و إبراز مدى توفيق الكاتب أو فشله في مزج هذه ظالعناصر لكي تمنح تأثيرها الجمالي النهائي من خلال التجربة النفسية التي تتشكل داخل وجدان القارئ " (5).

فإذا أقصينا عنصر التفسير و التحليل و إبراز مكمن الجمال و القبح , و آثرنا التعامل مع النصوص وفق نظرية الحب و الكره (بتعبير جابر عصفور) كما تنادي بذلك المدرسة الانطباعية , فإننا يقينا لن نلمس جوهر النقد أو أننا سنصبح جميعنا نقادا !!

و أغرب ما في الأمر. أن تجد نقادا كبارا سقطوا في فخ الانطباعية فآمنوا بها و آزروها عل رأسهم محمد مندور و يحيى حقي و إيليا الحاوي و غيرهم .

3 _ الإسهال المصطلحاتي :

من أبرز العيوب التي تؤكد القاعدة الشهيرة المعروفة عن العرب من أنهم اتفقوا على أن يختلفوا هذا الإسهال المزمن في الفعل الاصطلاحي(بتعبير الدكتور يوسف وغليسي),فنادرا ما يتداول الباحث أو الناقد العربي مصطلحا تداوله ناقد آخر أو اشتهر به حتى نسب إليه و لذلك تجده يصرف الليالي الطوال و هو يفكر في" دالٍ " جديد ,مبهر و لافت يسرق به أو يسوق به _ كما تشاء_ إبداعا غربياً ليس له فيه فضل و لا ناقة و لا جمل .

انظر مثلا إلى الانطباعية لقد استوردها العرب منهجا انطباعيا / تأثريا / ذوقيا / انفعاليا / ذاتيا ...و هلم جرا .

و انظر إلى الطامة الكبرى السيمياء كم لباسا ألبسوها و كم أحمر شفاه به لونوها سيمياء / سيماء / سِمة /علم العلامة /علم الدلالة/ سيميولوجيا /دلائلية /سيميوطيقا علم الإشارة...و لاداعي لأن نذكر باقي الخزعبلات لأنها أقرب ما تكون إلى الشتيمة منها إلى المصطلح العلمي .

إن هذا الإسهال المرضي المزمن في الفعل المصطلحاتي عادة ما ينهك الباحث بوصفه استهلك جهده في هذا القشور , دون أن يسعى إلى إعمال ذهنه في ما تعنيه هذه النظرية أو تلك و لذلك أيضا _ و هذا من الأمور المضحكة المبكية _تجد الناقد العربي فرحا مغتبطا باكتشافه لآخر صرعات المنهجية الغربية في حين لا يدري أن هذه المنهجية قد أكل عليها الدهر و شرب بدليل أن السيميائية التي لازالت إلى الآن أكبر همنا و مبلغ علمنا قد انقرضت من الدرس الغربي أواخر السبعينيات من القرن الماضي إن لم يكن قبل !!

4 _ مراعاة أن يكون المحاكي موافقا لشروط حياة المحاكي:

للمحاكاة _ كما سلف و أشرنا _ شروط لا تصح إلا بها و لعل أهمها أن يراعي المحاكي أن يكون المحاكي موافقا و مناسبا لظروف مجتمعه و عاداته
و تقاليده و ثقافته .

إن عملية التأثر بالآخر _ و هو غالبا من يكون الأرقى مكانة و الأكثر تطورا و الأحظى منزلة دوليا و ثقافيا و اجتماعيا _ تحكمها ضوابط معينة , لا تمحي معها شخصية المتأثر و لا تتضعضع فيها ماهيته , أبرزها أن يوافق ما نأخذه عن غيرنا واقعنا و طبيعة حياتنا و خصوصية لغتنا و أدبنا .

و الغربي إذ يبتكر أسسا و نظريات جديدة يضع نصب عينيه في ذلك طبيعة أدبه و فنه و حياته و مجتمعه و نحن في نقلنا عنه لا نضع _ في الغالب _ كل هذا في الاعتبار إن " نقل التفكير الأوروبي لا يكفي في تغيير اتجاهاتنا الأدبية
و خلق ألوان جديدة منها , لأن الأدب الصحيح هو الذي نستمده من الحياة
و نبنيه على الواقع , و هذا لن يكون حتى نعرض الفنون الأوروبية الحديثة على أنفسنا عرضا مباشرا , عرضا شعوريا , ذوقيا لا مجرد عرض عقلي ثقافي "(6)

و من نماذج التعامل الخطأ مع مناهج الغرب تعامل نقادنا العرب مع المنهج النفسي .

فمن أكثر المناهج الغربية تأثيرا في النقد العربي المنهج النفسي الذي كان ثمرة التحليل النفسي لمبدعه سيغموند فرويد (1856 _ 1939) و ملخصه أن كل مشكلة تواجه الإنسان هي خلاصة عقدة نفسية جنسية مكبوتة في لا شعوره منع من ظهورها مانع ما أو سلطة عليا , فالأحلام و الهستيريا و الكوابيس

و الفنون و الآداب هي محصلة عقد مكبوتة في لا شعور منتجها منع ظهورها رقيب أعلى فتنفسها صاحبها حلما و هيستيريا و كوابيس و رسما و شعرا و رواية و قصة...إلخ .

و إن كان لكارل يونغ (1875 _ 1961) و ألفرد أدلر (1870 _ 1937) جهودهما المثمرة في مجال التحليل النفسي , إلا أن قوانين سيغموند فرويد

(1856 _ 1939) كانت الأشد تأثيرا في نقادنا الذين سرعان ماهللوا للمنهج النفسي و تماهوا فيه .

إن نظرة سريعة إلى كتب النقاد العرب المتأثرين بالمنهج النفسي تجعلك تتساءل إن كان ما تقرأه نقدا أدبيا يفترض فيه تبيان مواطن الجمال و القبح أم تحليلا نفسيا لأمراض روحية تخص أناسا مرضى جنسيا ؟

أنظر مثلا إلى ما قاله أحد المتأثرين بهذا المنهج حد النخاع : " و كلما يتمكن الناقد و المحلل لنص ما أن يتوغل في حميميات عوالم المبدع و تفاصيل شخصيته الباطنية , كان أكثر ناجحا(*) و متوغلا بدقة أكثر إلى دوافع النص(**) الكامنة من وراء كتابته للنص " (7).

أي أن النص الأدبي _ حسب صبري يوسف _ ليس ذوبال إذا فصل عن صاحبه , و أننا لن نفهم العمل الأدبي ما لم نفهم صاحبه , و نخترق خصوصياته و نكتشف و نكشف عقده النفسية و الجنسية !!

إن أدهى ما في الأمر أن تعلو الصرخات من نقادنا بأن يهتم الناقد بالنص لا باعتباره عملا أدبيا, و فنا جماليا , و لكن فقط ليصل إلى صاحبه و يستمتع به

و هو يتعرى أمامه قطعة قطعة رغما عن أنفه !!

يقول الدكتور عبد الرحمان عدس " صحيح أن علم نفس الأدب لا يزال مجالا خصبا للدراسات النفسية لأن ما يصدر عن الأدباء من كتابات سواء كانت نثرية أو شعرية هي عبارة عن انعكاسات لإحساسهم و مشاعرهم الذاتية و بذلك يمكن من خلال دراسة و تحليل ما يصدر عن الأدباء من كتابات نثرية أم شعرية الوصول إلى أعماق نفوسهم و الوقوف على الأشياء التي يفكرون بها و تستحوذ على اهتمامهم "(8).

لقد صدق الدكتور نبيل راغب حين علق على مهاترات النقاد العرب المتماهين في المنهج النفسي قائلا : " فإنه يمكننا أن نقول بصفة عامة إن المحللين النفسيين هم غالبا نقاد فاشلون بشكل لافت للنظر" (9).

إن الغرب في ابتداعه للمنهج النفسي و التحليل النفسي عموما , له دوافعه

و أسبابه و التي من أهمها شيوع الفوضى الجنسية فيه , و الشذوذ وعبادة الذات , و تأليه المادة , و سيطرة المكننة , و هي الأمور التي انعكست على أدبه و فنه

و مسرحه و أفلامه , إنها بالمختصر سمة حياته و هو ما يتنافى مع الوقار أو الحشمة التي عادة _أقول عادة_ ما يلزم بها الأديب العربي نفسه , و هو يكتب

و يخاطب مجتمعا عربيا مسلما .

بل إن فرويد نفسه , و هو مبتكر التحليل النفسي , يقر و يعترف بأن " التحليل لا يستطيع أن يقول كلمته الأكيدة إزاء نصوص الفن و الأدب و إزاء عملية الخلق الأدبي "(10)

أخيرا ,

إننا لا ننكر بأي حال من الأحوال الإضافات الجليلة التي استفادها النقد من النظريات الغربية , و هو لم يعش _و ليس باستطاعته أن يعيش_ بعيرا أجرب منكفئا على ذاته , لقد تفاعل مع باقي العلوم الإنسانية و أثرى معجمه اللغوي بدوال جديدة لم تكن تتوافر له , غير أن هذا لا ينفي أثره السلبي عليه , حيث أضحى فأر تجارب لنظريات لا علاقة له بها و أعجب ما في الأمر أن تعرف أن

هذه المناهج على اختلاف تسمياتها المنهج الاجتماعي /المنهج النفسي/المنهج التاريخي/المنهج الانطباعي/المنهج الأنثربولوجي/المنهج الفلسفي/...و غيرها إن هي في الحقيقة إلا مناهج جاءت في الأصل خدمة للعلم الذي تنتمي إليه علم الاجتماع/علم النفس/علم التاريخ/الفن التشكيلي/الأنثربولوجيا/علم الفلسفة...إلخ.

فإسقاطها عنوة على الأدب و النقد , فيه تعسف كبير و ربما هو سبب من الأسباب التي جعلتنا نتخبط في كم نظري هائل . و فقر مدقع في التطبيق , الأمر الذي جعل بعض أساتذة النقد الحديث و المعاصر يفتقر إلى آليات تطبيق هذه المناهج في حين يُطْنِبُ و يصول و يجول في التدريس النظري لها (*)

و ختاما ألا يحق لنا التساؤل عن إمكانية أن يصنع النقد لنفسه نظريات خاصة به , منه و إليه ؟

صدق الناقد الكبير يحيى حقي حين صرخ يوما في جمهور النقاد قائلا: " لا تحطوا على الفن كلا كل نظريات النقد المستوردة كلها فإنها تخنقه "(11)

و الشعرية و الأدب المعاصر و المدارس اللسانية و غيرها من ميادين الأدب الأخرى .

قائمة الهوامش

01 _ يوسف سامي اليوسف , مقال في كتاب محمود أمين العالم و آخرون : في قضايا الشعر العربي المعاصر _دراسات و شهادات , نشر المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم , تونس , 1988 ص 84 .

02 _ أنظر: ابن منظور: لسان العرب , دار المعارف , مصر (د.ت) , ج 6 , ص4517 .
و المعجم الوسيط , ج 2 , ط2 , مجمع اللغة العربية , القاهرة , ص984 .

03 _ محمد مندور: في الميزان الجديد , ط2 , مؤسسات ع , بن عبد الله , تونس ,1993 ,ص20 .

04 _ سيد البحراوي , الخدعة البنائية في الدراما المصرية , ميراث للدراسات و النشر , القاهرة ,1999 , ص114 .

05 _ نبيل راغب : التفسير العلمي للأدب _ نحو نظرية عربية جديدة , ط1 الشركة المصرية العالمية للنشر , لونجمان و مكتبة لبنان , ناشرون , 1997 , ص 188 , 189 .

06 _ محمد زكي العشماوي:دراسات في النقد المسرحي,دار النهضة العربية بيروت, 1980 , ص183 .

07 _ كلمة صبري يوسف: في ملتقى سيكولوجية الادب, ضمن كتاب, سعاد جبر سعيد : سيكولوجيا الأدب _ الماهية و الاتجاهات, جدارا للكتاب العالمي, و عالم الكتب الحديث, الأردن,2008, ص26 .

08 _ كلمة عبد الرحمان عدس في ملتقى سيكولوجية الأدب , نفسه , ص18 .

09 _ نبيل راغب : التفسير العلمي للأدب ,189 .

10 _ حسين الحاج حسن : النقد الأدبي في آثار أعلامه , ط1 , المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع , بيروت ,1996 , ص84 .

11 _ يحي حقي : خطوات في النقد , الهيئة المصرية العامة للكتاب ,مصر, 1976 , ص09.